



صحيفة "مانعة" تخوض معركة النظام السوري منذ اليوم الأول من أزمته، وتنشر تحقیقات عن "انتصاراته" وعن "المؤامرات الدولية" عليه، لم تشعر أن حدث الانتخابات السورية التي أجريت يوم الأربعاء الفائت يستحق صدر صفحتها، وأن صورة رئيس النظام بشار الأسد، التي جندت نفسها للدفاع عنه، وهو يقترب، يمكن أن تُشكل إغراءً لقارئها، فاختارت لغلافها صبيحة اليوم الذي أعقب الانتخابات صورة مفترضة افتراضية للانتخابات البلدية اللبنانية المزمع إجراؤها في المستقبل.

الصحيفة تريد للسوريين رئيساً لا تشعر هي أنه يستحق صورة غلافها يوم الانتخابات السورية. والحال أن الصحيفة كانت مصيبة في حجبها صورة رئيس نظامها في ذلك اليوم، ذاك أن الحدث لا يُمثل شيئاً، والحد الأدنى من الرغبة في احترام ذكاء القارئ يقتضي حجب الصورة.

لكن "الحدث السوري" الممحوب ترافق مع حدث آخر يطرح بدوره تساؤلاً عن إيمان حلفاء بشار الأسد به، على رغم قتالهم لحماية موقعهم في نظامه. والحدث كان ما نشرته مجلة "نيويوركر" من وثائق تُثبت تورط الأسد شخصياً في أعمال القتل الجماعي التي شهدتها سوريا في السنوات الخمس الفائتة. والوثائق يمكن أن تُشكل مادة محاكمة دولية متماسكة للرئيس الممحوقة صورته في يوم الانتخاب. وهذا علماً أن ستيفن راب، وهو محام عمل مدعياً في محكمتي راوندا وسيراليون الجنائيتين الدوليتين، قال: "إن الوثائق السورية التي كتبت عنها "نيويوركر" أغنى بكثير من أي شيء رأيته، وأي شيء قمت بالادعاء مستنداً إليه، في كل تجاري".

أما جامع الوثائق ومسرها فهو ليس إلا أمين سر خلية الأزمة، تلك الهيئة التي كانت ترفع توصياتها بضرورة تعميم القتل إلى الرئيس ليوقع عليها، ويضيف إليها توصيات بمزيد من القتل.

الذهاب بهذه الوثائق إلى المحكمة الجنائية الدولية يبدو متعرضاً ل حاجته إلى قرار من مجلس الأمن الدولي. لكن الملف الذي أصبح وفق "نيويوركر" مكتملاً سيكون وثيقة يمكن إشهارها في وجه أي رغبة دولية في معاودة العلاقة مع النظام السوري.

ذاك أن الولايات المتحدة الأميركيّة، مثلاً، ستكون في حال قررت أن تقيم قنوات تواصلٍ مع الرئيس المُحجوّبة صورته في صحيفته، أمام ملف يدينها وفق القيم التي تدعي أنها ترعاها.

العلاقة مع بشار الأسد تعني علاقة مع قاتل مثبتة فعلته، أو فعلاته. والغرب مهما تقدمت مصالحه على قيمه لن يتمكن من تجاوز عقبة على هذه الدرجة من الوضوح، ذاك أن شروط العلاقة بين الغرب ومواطنيه وقوانينه وقيمته ستكون عرضة للهداز. ومثال فعلة الصحيفة الممّانعة في يوم الانتخابات السورية واضح هنا، فادعاء حد أدنى من العلاقة مع ذكاء القارئ اقتضى إخباره بأن الانتخابات السورية "ليست حدثنا" على رغم أن الرئيس، المُحجوّبة صورته، قال إنها ترسم مستقبل سوريا.

هذه المعادلة تقودنا إلى تساءل آخر هو: هل ثمة من بين حلفاء بشار الأسد من هو مؤمن بقدرته على البقاء رئيساً في ظل أي تسوية ومهما كانت ظروفها؟

يفترض المرء أن دولاً كروسيا وايران، تدرك استحالّة الأمر وأن رجلها في سوريا صار خارج مستقبل بلده، إذا كان المستقبل سلاماً وتسوية! إذاً لماذا كل هذه الدماء؟

مهما كانت الإجابة، ومهما تفاوت الأثمان المطلوبة بين موسكو وطهران، فإن شيئاً رهيباً تشهده سورياً يتمثل في أن إبادة تجري، وظيفتها انتظار الثمن الذي تقتضيه "التضحيّة" برئيس لا يؤمن أحد بإمكان بقاءه. الفظاعة هنا تفوق فظاعات عمليات الإبادة التي شهدتها القرن المنصرم بصفته قرن الإبادات. والفظاعة هنا نوعية وليس كمية، ذاك أن مادتها لا تقتصر على عدد الضحايا، إنما تشمل موضوع المقتلة. فالرئيس المطلوب حمايته لا يؤمن به المقدّمون على الفظاعة، ومن المفترض أنهم يبحثون عن ثمن لقبولهم بوقف المجزرة. ووظيفة الإبادة في هذه الحال انتظارية واستطلاعية، بالإضافة إلى وظائفها الاستئصالية.

و هنا يمتد سؤال الفظاعة ليشمل الغرب وقيمته أيضاً، فتعليق مستقبل سوريا، وإن انطوى على عدم قبول بشار الأسد، يعني قبولاً باستمرار المجزرة، وهذه الأخيرة ليست فكرة غير محققة، ولا صورة تحتاج إلى من يُجلّيها، فهي موثقة بما لا يقبل الشك. وأن يقول محامي ادعاء دولي أن وثائق تحقيق "نيويوركر" أغنّى من أي وثائق سبق أن عاينها في تاريخ المحاكمات الدوليّة، فما يرتبه ذلك يتعدى العجز عن تحويل الملف إلى الجنائية الدوليّة. فالغرب إذا ما أراد أن يقول: هذه قيمي، عليه أن لا يكتفي برفض قبول مستقبل لبشار بل أن يسعى في المهمة.

والحال أن الوثائق المسربة وضعت العلاقة المستقبلية بين السوريين واحتمال أن يكونوا جزءاً من العالم أمام امتحان فعلي. وتقرير "نيويوركر" ذكر هذا العالم بما قاله بشار الأسد لبرباره والتزّر: "مشاركة سوريا في الأمم المتحدة لعبة نلعبها، وهذا لا يعني أننا نصدقها". وإذا كان العالم معنياً بأن يقول للسوريين إن العلاقة مع قيمته يجب أن لا تكون كعلاقة بشار مع الأمم المتحدة، فعليه أن يتحرك لحماية هذه القيم من هذا النظام، تماماً كما تحرّك لحمايتها من "داعش".

وإذا كان من فظاعة لم تُشبّع تاماً في هذا العرض فهي الفظاعة التي افتُتح بها، والمتمثلة في قيام الممّانعة بإجبار السوريين على الخضوع لرئيس لا تؤمن به هي نفسها.

المصادر: